مقدمة من «ضد العولمة» إلى «ما بعد العولمة»

هذا كتاب نحاول فيه اختراق حاجز الزمن لكشف أبعاد المستقبل ومع ذلك فهو ليس رجمًا بالغيب وهتكًا لأستاره بلا مبرر، حيث أن قراءة المستقبل تنطلق لدينا من تحليل دقيق وعميق لما يجرى فى الواقع المعاصر من أحداث هى نفسها تداعيات لأحداث سابقة عليها، وبالتالى فهى بلا شك تمثل مقدمة لأحداث تالية .

وقضيتنا الأولى فى هذا الكتاب هى : ما هى الصورة العامة لهذه الأحداث القادمة وما هى الملامح الأساسية لصُناع هذه الأحداث. وهل سيستمر اللاعبون الأساسيون على سيرك الحياة المعاصرة للعالم هم هم أم أنهم حتمًا سيتغيرون بعدما طال الزمن باستبدادهم وآن أوان زوال هيبتهم وتسلطهم؟!

لقد نجح «الغرب» رغم كونه – على حد تعبير جارودى – عرض طارئ فى تاريخ البشرية الطويل ، نجح بفعل نشره لأكاذيب مثل «المعجزة الغربية» ، «المعجزة اليونانية» ، «العولمة أو الكوكبية» فى ترويج نفسه أمام شعوب العالم الأخرى بأنه هو مركز التاريخ

الإنسانى بأكمله؛ فلم تكن هناك حضارة ولا فكر ولا علم ولا مدنية إلا حينما ظهرت الأمة اليونانية - وهى الأصل الأول لهم - على خريطة التاريخ القديم . كما لم تكن هناك حضارة حديثة ولا تقدم صناعى وتجارى، ولا دولة ولا قانون ولا حرية ولا مدنية معاصرة إلا منذ عصر النهضة وبدء العصر الحديث فى «الغرب» . ومن ثم تشرذم وتقزم تاريخ الأمم الأخرى حتى أصبح لا يكاد يذكر إلا على هامش التأريخ للحضارة الغربية قديمًا وحديثًا ، تلك الحضارة التى لم تستمر قديمًا إلا عدة قرون تعد على أصابع اليد الواحد، أما حديثًا فعمرها الحقيقى لا يتجاوز القرنين الأخيرين أو على أبعد مدى القرون الثلاثة السابقة .

وهذه القرون الثلاثة كانت كفيلة بما حفلت به من أوهام المركزية الغربية فى كل شىء بأن تضمحل إلى جوارها إنجازات الحضارات الأخرى لدرجة العدم!! ورغم أن الحربين العالميتين فى القرن الماضى قد قتل فيهما أكثر من خمسين مليونًا من الأوربيين، إلا أن الحضارة الغربية قد نجحت فى ذات الوقت فى تشكيل العالم عقبهما كيفما شاء الأوربيون ومعهم القوة الناشئة التى تعملقت الآن تحت اسم الولايات المتحدة الأمريكية .

إن عملقة «الغرب» أمام ناظرى الغربيين أنفسهم ، وعملقة الولايات المتحدة الأمريكية بالتالى أمام ناظرى الأمريكيين خاصة وأمام الأوربيين وبقية العالمين عامة جعلت هؤلاء وأولئك يتصرفون كما لو أنهم قد امتلكوا الأرض ومن عليها، وأن من حقهم توزيع ثرواته كيفما شاءوا والتحكم فى مصادرها بكل الوسائل المشروعة وغير المشروعة . لقد سنوا التشريعات ووضعوا القوانين لهيئات أطلق عليها هيئات دولية وهى فى الواقع لا تعمل لمصلحة دول العالم أجمع، بل تعمل – حسب القوانين المفصلة لخدمة السادة – وفقًا لمصلحة سادة العالم : «الغرب» ورأس حربته الآن «أمريكا»!

وحينما يصل الأمر كما وصل الآن إلى محاولة إذلال بقية شعوب العالم وإفقارها وهدم منجزاتها الحضارية والتقليل من شأنها، حينما يصل الأمر إلى هذا فلا بد من أن ينهار الطاغوت ؛ ففى اللحظة التى يتصور فيها أنه قد وصل إلى ذروة التحكم والسيطرة يكون فى هذا نقطة البداية لنهايته!

لقد علمتنا دراسة فلسفة التاريخ كيف نقرأ تاريخ الدورات الحضارية، وعلمتنا كيفية صعود الأمم وكيفية انهيارها . وحينما نطبق هذه المعايير – كما طبقناها فى قضيتنا الأولى تلك – كانت

النتيجة هى أن المستقبل سيشهد إنهيار «الطاغوت» داخليًا وخارجيًا وسيشهد صعود قوى أخرى أكثر اعتدالاً وأكثر مراعاة لمصالح بقية الشعوب وأكثر مراعاة لتطبيق معايير العدالة على كافة الشعوب.

أما قضيتنا الثانية فهى محاولة للتدليل على هذه الرؤية الفلسفية العامة للمستقبل ؛ فرغم أننا حاولنا بوسائل شتى وببراهين عدة البرهنة على أننا لم نعد نعيش عصر ما يسمى بالعولمة وأن انهيارها أصبح حتميًا مع انهيار أسسها وقادتها ومع تنامى رفض بقية شعوب العالم لقيمها ولهيمنة قادتها ! كما حاولنا وضع صورة لما بعد العولمة وكيفية نشوء الدورة الحضارية التالية وأهم معالمها.

أقول رغم ذلك إلا أننا وجدنا أن بعض التفاصيل قد تكون مفيدة، وأن تقديم القراءات الجزئية لصورة المستقبل بالنسبة للعلم ، وبالنسبة لأقطاب العصر القادم وخاصة فى أسيا ، وكذلك بالنسبة لمستقبل «الإسلام» باعتباره يمكن أن يكون بديلاً يوتوبيا للمستقبل إن لم يكن القريب، فالبعيد .

أقول أننا وجدنا أن هذه القراءات النوعية والجزئية ستكون بمثابة الضوء الكاشف المؤكد للرؤية العامة التى طرحناها فى القسم الأول من هذا الكتاب.

ولما كان السؤال الملح هو : ماذا نحن فاعلون إزاء هذه القراءة للمستقبل بشكليها العام والجزئى؟!

فقد قدمنا فى القسم الثالث بعض ما نراه فى اللحظة الراهنة ضروريًا لكى نكون على قدر التحدى المفروض علينا . إذ أن التخلص من بعض معالم ثقافة التخلف التى علقت بنا منذ ابتلينا بالاستعمار الغربى وترسيخه فينا قيمًا معينة جعلتنا «محلك سر» ؛ فمنذ أكثر من مائة وخمسين عامًا أو يزيد لا نزال أسيرى ثنائية الأصالة والمعاصرة ، التقليد والتجديد ، التراث والحداثة ، الشرق والغرب.. إلخ .

وطالما ترسخت فينا وسيطرت على عقول مفكرينا هذه الثنائيات حيث يكون السؤال المطلوب الإجابة عنه هو : هل نترك الطرف الأول أو نبقى فيه ! ، هل نرتمى فى الطرف الثانى أو ننعزل عنه ؟!

وبالطبع تكون الإجابات ولا تزال ، هى الإختيار بين البديلين حسب رؤية كل طرف! أو الجمع بينهما فى خانتين متجاورتين ؛ فنكون هذا البديل حين يتعلق الأمر بشىء يخص الهوية والتراث ، ونكون ذاك البديل الآخر حينما يتعلق الأمر بشىء يخص العصر

الذى نحياه . ومن ثم أصبحنا أسيرى ثنائية فجة لا تؤدى مطلقًا إلى أى تقدم ، بل تؤدى عادة إلى التشرذم والتحلق حول أحد البدائل الثلاثة وكل واحد منهم وحده يمثل عائقًا أمام التقدم لأننا لا نتعامل مع العصر بعقلية الواثقين من أنفسهم ومن قدراتهم الذاتية. وإنما نتعامل معه بعقلية الخائف – المتردد – الذى يحس بالدونية ويطلب العون ممن لن يعينه أبدًا على بلوغ ما بلغته قامته وتقدمه !

إننا لم نعد نطرح مثل هذه الثنائيات، فقد تخلصنا منها منذ زمن ونادينا فى ثلاثة من مؤلفاتنا السابقة "ضد العولمة" و "فلسفة الثقافة" و "بين قرنين – معًا إلى الألفية السابعة"، نادينا بأن نتعامل مع العصر تعامل الواثق من قدراته، المعتز بقيم تراثه العريق، القادر على أن يتعامل مع كل منجزات العصر بعقلية مرنة حرة فخورة بأنها تدخل الألفية السابعة من وجودها الحضارى، بينما "الآخر" عمره لا يتجاوز ألفى عام أو يزيد قليلاً إذا ما وضعنا فى الاعتبار بضع قرون عاشتها الحضارة الغربية ممثلة فى الحضارة اليونانية قبل الميلاد.

إننا نطرح هنا سبلاً عملية مؤطرة بالأطر النظرية السابق طرحها فى مؤلفاتنا السابقة تلك، هذه السبل أ همها: التفكير دائمًا

فى المستقبل والتوجه نحو تأمله والمشاركة فى صنع أحداثه، قبول قيمة الحوار حيث إننا بالفعل أصحاب حضارة الحوار، قبول القيم الأخلاقية ذات البعد الدينى الراسخ وجعلها قيماً للتحديث وصنع التقدم ... إلخ.

إننا ندرك أن الشخصية المصرية إذا ما تيقظت لذاتها وأدركت حجم دورها فى الماضى والحاضر، فهى تكون قادرة بفعل الحوار مع الآخر واستنهاض قيم تراثها العريق. ستكون قادرة على صنع المستقبل بكل ما يحمله من تحديات، لأننا نملك القدرة الحقيقية – إذا ما شئنا وأردنا – على الاستجابة الفعالة لأى تحدى ونعرف كيف نتعامل معه .. فقط يتطلب الأمر : ثقة فى النفس – تفكير دؤوب فى المستقبل – امتلاك ناصية التفكير العلمى – التمسك بالقيم الأخلاقية الإيجابية ونبذ القيم السلبية الداعية إلى التكاسل والفرار من الواقع – تقبل النقد سواء كان من الداخل أم من الخارج والدخول فى حوار إيجابى بناء حول كل القضايا التى تشكل دعامات صنع المستقبل.

كما أننا ندرك أن تيقظ الشخصية المصرية يعنى ضمن ما يعنى اليقظة فى ذات الوقت للشخصية العربية ككل وربما أيضًا

للشخصية الإسلامية. وهى بهذا تعطى المؤشر الفاعل فى الحوار الحضارى مع "الشرق – رمز المستقبل والمؤهل لقيادته"، ومع الغرب "الأوربى" الذى يملك ناصية الحاضر والأساس الحقيقى للحضارة السائدة إذا ما نظرنا بواقعية ودون انبهار للهيمنة الأمريكية ذات القشرة الحضارية الزائفة!!

وبعد عزيزى القارىء ..

فإن كتابنا هذا يعد الكتاب الرابع فى سلسلة مؤلفاتنا التى خرج بها صاحبها من أسر التخصص العام والدقيق (الفلسفة عمومًا – والفلسفة القديمة خاصة)، إلى فضاء الفكر الواسع لا لكى يتسلى بك ومعك بطرح قضايا فكرية معينة، بل ليقلق مضجعه ومضجعك بشأن الحاضر والمستقبل! فالفكر قلق ولا مفر من القلق إذا ما أردنا أن ننهض! فالنهضة تنطلق من شكوك ودهشة وقلق لتحلل وتفكر وتصل إلى أفكار كاشفة لعمق الحاضر، مستشرفة آفاق المستقبل، طارحة الحلول للتعامل مع هذا المستقبل وتحدياته!

وهذا ما حاولناه فى مؤلفاتنا الثلاثة السابقة ونستكمله فى كتابنا الرابع هذا الذى بين يديك.

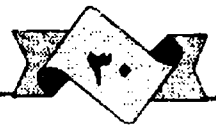

ففى "ضد العولمة" كانت القضية فى حينها قراءة للواقع ورفضاً للهيمنة وليتذكر القارىء العزيز أن هذا الكتاب صدر فى أواخر عام ١٩٩٨م أيام كان الفكر العربى لا يزال يتلمس معنى المصطلح من الأدبيات الغربية ونقلاً عنها، فكانت المفاجأة أننا قفزنا على كل المعانى التى روجت لها كل هذه الكتابات وأدركنا جوهر العولمة .. إنها "غربنة العالم" أو بمعنى آدق "أمركته" على كافة الأصعدة الثقافية والاقتصادية والسياسية والمعلوماتية ومن ثم كان رفضنا لها وكان عنوان كتابنا هذا مفاجئًا للجميع فلم يكن هناك إلا نحن الذى جاهر بأنه ومنذ العنوان "ضد العولمة" وقصدنا حينذاك بهذا العنوان الجدلى المثير صدمة القارىء العربى وربما الغربى إذا كانوا يهتمون بما نقول أو بما نكتب. وهذه الصدمة بلا شك مطلوبة حتى نقرأ ونتحاور ونتلمس الطريق الذى سنتفق عليه فى النهاية؛ فالمسألة ببساطة أننا لم نكن مع أو ضد بشكل مطلق .. بل مع ما يطرح علينا بشكل إيجابى بناء، وضد كل عوامل الهيمنة وفرض الأمر الواقع على أنه الحقيقة التى لا تقبل النقاش أو الرفض !!

ولما كانت المسألة حينئذ كما قال الكثيرون وأكدوا ونحن لسنا ضدهم بشكل مطلق، أن "العولمة" حالة واقعة ولابد من التعامل

معها والتعايش مع مبادئها السياسية والاقتصادية بل والثقافية فقد أعدنا النظر فى الأمر، وأعدنا مناقشة قضية العولمة وخاصة على الصعيد الثقافى فى كتابنا التالى "فى فلسفة الثقافة" حيث أردنا فيه أن نكون مشاركين بجدية فى الحوار العالمى حول قضايا الثقافة والتنمية والتقدم والعولمة. فقدمنا فيه رؤيتنا الخاصة لماهية الثقافة والتحضر ثم ناقشنا العولمة ومضمونها وخاصة على الصعيد الثقافى؛ فليس معنى أن آليات العولمة ضرورة لابد من الأخذ بها والتعامل من خلالها مع الآخر، ليس معنى ذلك أننا سنصبح مثل هذا الآخر فى ثقافته وقيمه بل إن الثقافة كما قلنا وأكدنا "شأن عقلى" وليست مرهونة فى تشكلها بآلية معينة أتلقى عنها وأتقبل منها، بل كل ما يقدم عبر كل الآليات التكنولوچية المعاصرة ذات الصلة بوسائل الاتصال ونقل المعلومات إنما يمر أولاً على "عقل" المتلقى وله أن يقبله وله أن يرفضه وهو فى الغالب طالما أن "المعلومات" المقدمة ذات مصدر "غربى" أحادى وذات قيم مغايرة وغير معبرة عن جوهر الإنسان وحقيقته الأصيلة، هو فى الغالب (أى المتلقى من كافة أرجاء العالم غير الغربى) سيرفضها وينصر عليها ثقافته الخاصة وخاصة إذا كانت ذات قيم إيجابية

بناءه صالحة للبناء عليها وصالحة لمواجهة تحديات الحاضر وصناعة المستقبل!

وقد توقفنا طويلاً فى ذلك الكتاب الثانى عند قضية "الثقافة والتقدم" وبعد تحليل وافى لمعانى الثقافة والتنمية، والتقدم، والتخلف أكدنا أنه يمكن لأى ثقافة عريقة مثل الثقافة العربية الإسلامية أن تتحول من ثقافة التخلف، إلى ثقافة التقدم بالمعنى الذى صغناه للتقدم وهو معنى غير قائم بالضرورة على ما هو شائع فى الخطاب الفلسفى الغربى. وأوضحنا كيفية هذا التحول وآلياته وسبل تحققه فى واقعنا العربى المعاصر.

ومن هنا بدا واضحًا أننا لم نرفض "العولمة" من فراغ، وإنما من منطلق أننا نرفض أن تصبح ذريعة للهيمنة على شعوب العالم وفرض قيم ثقافية وتقدمية ناقصة ومشوهة على شعوب وحضارات هى فى ذاتها أعرق وأكثر قدرة على النهوض وعلاج تشوهات وسد نقائص الحضارة الغربية المعاصرة وخاصة الصورة الأمريكية منها!

وبدا واضحًا كذلك أننا نملك استراتيجية خاصة للثقافة ولمعنى التنمية والتقدم كما أننا نستطيع - إذا شئنا وأردنا بحق - أن نشارك فى صنع الحياة الأفضل لأنفسنا وللآخرين.

أما فى الكتاب الثالث "بين قرنين – معًا إلى الألفية السابعة" ، فقد عدنا إلى الكثير مما أجملناه فى الكتابين السابقين، وقدمنا تأملات أكثر تفصيلاً حول قضايا الواقع التى تخصنا كما تخص "الآخر" سواء كانت قضايا فلسفية أو اقتصادية أو اجتماعية أو علمية أو تكنولوچية ... إلخ، وكان من شأن هذه التأملات التى امتلأت بها دفتى الكتاب والتى بلغت عدد المقالات والدراسات فيه ثلاثين ، أن تعيد إلينا الثقة فنحن أصحاب حضارة تدخل ألفيتها السابعة، ونحن الذين نهون من شأنها وشأننا حينما نحتفل مع العالم بما سمى مطلع الألفية الثالثة، وهذا العمق الحضارى استند على حقائق أوضحناها، ويلقى علينا تبعات بنبغى أن نكون واعين بها وجاهزين للاطلاع بمهامها.

وها نحن فى الكتـــاب الذى بين يديك وهو الرابع فى هذه السلسلة عبر فضاء الفكر الواسع، نحاول الانتقال من قراءة الواقع وتحديد موقفنا منه وموقعنا فيه من خلال التأكيد على ذلك العمق الحضارى العريق من مصر القديمة إلى مصر المسيحية إلى مصر الإسلامية إلى مصر الحديثة متحلقة بحلقتى الأصالة والمعاصرة فى

بنية لا تمييز فيها بين هذا وذاك، فمصر تهضم وتعيد فرز القديم والجديد معًا دون أن يبقى ذلك فى خانة وذاك فى أخرى.

أقول ها نحن نتجاوز تحديد موقفنا من الواقع المعاصر عبر قراءة الماضى والحاضر معًا، إلى قراءة المستقبل واختراق حاجز الزمن لنعرف صورة هذا المستقبل وتحديد سبل التعامل معه والمشاركة فيه.

وكلى أمل أن نتفاعل مع هذه القراءة للمستقبل، لعلها تكون هاديًا لنا لامتلاك ناصيته أو على الأقل المشاركة فيه بصورة أكثر إيجابية. وأنا على ثقة بأنه رغم قتامة الحاضر ورغم كل ما يثقل كاهلنا منه، أنا على ثقة بأنه سيصبح بعد قليل ماضيًا نأخذ منه العبرة ويلهمنا القوة والقدرة على الأخذ بأسباب النهوض والتقدم فنحن أمة لم تُخلق لتموت وتذهب أدراج الرياح كصفحة من صفحات التاريخ المهملة، وإنما نحن أمة هى أعرق الأمم وهى أصل الحضارة وصانعة التقدم، ولذا فهى أمة لا تموت، بل كلما زادت عليها التحديات وتكالب على أصعتها الآكلة والذئاب كلما استجابت واشتدت استجابتها شيئًا فشيئًا لتقف شامخة من جديد

معتزة باستقلالها ومباهية بقدرات أبنائها وفخورة بانجازاتهم وريادتهم!

إننى أرى بعين البصيرة والعقل والعلم معًا أننا على مشارف خطوات من هذا المستقبل الزاهر. كل ما هنالك أننا نحتاج للجرأة فى اتخاذ الخطوة الأولى لتحقيق عوامل القدرة المستقلة وبالتالى القفز لهذا المستقبل المنشود.

ولعل نصف هذه الخطوة نحو المستقبل هى القراءة الجيدة الواعية لأبعاد الحاضر وتحديد ملامح المستقبل. وهذا ما حاولنا تقديمه إلى القارىء المصرى والعربى والمسلم فى هذا الكتاب الذى تنحنى قامة صاحبه تواضعًا وحبًا لك أيها القارىء العزيز لعل أيدينا تتشابك، وعقولنا تتحاور، وتتوحد وجهتنا معًا ناظرين نحو المستقبل بأمل وتفاؤل.